القديس أنبا ايسيذوروس قس الأسقيط

(القرن الرابع)

مليكة حبيب يوسف

يوسف حبيب

مصادر الكتاب

Les Vies des Pères des Déserts d'Orient, par le Rèv. Père Marin Michel-Ange, Avignon 1761 .

Vies des Saints et des Bienheureux par les R.R. P.P. Bénédictins

The History of the Monasteries of Nitria and Scethis, by Hugh 9. Evelyn White

Les Pères du Désert

par Jean Brémond.

مقدمة

باسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

كتبنا عن القديسين الذين تذكرهم الكنيسة القبطية فى قداساتها قروناً عديدة .

ويلوح لنا أن قليلين هم الذين يعرفون شيئاً عن الأنبا ايسذوروس القس فترجمنا ما ورد عنه فى بعض المصادر الفرنسية والانجليزية وبالأخص بمجموعة Les Vies des Pères des Déserts d'Orient, Avignon 1761.

وهى أفضل ما كتب عن هذا القديس الذى لمع نجمه فى القرن الرابع وله أقوال متجددة فاعليتها مدى القرون، فنقدمها ذكرى عطرة لصاحبها ـ نفعنا الله ببركاته آمين .

Vies des Saints et des Bienheureux par les R.P. Bénédictins.

صفحة ٢٩٩ ماترجمته :

القديس ايسيذورس قس الاسقيط .

يوجد بعض الخلط فى

موضوع الرهبان القديسين باسم ايسيذروس . ويرى العالم « تيموند » Tillemond فى الجزء الثامن من كتابه : Mémoires pour servir à l'histoire ecclésiastique, d'après l'histoire lausiaque,

فى صفحة ٤٤ أن الذى نتكلم عنه هنا هو ذاته الذى ارشد الأنبا موسى الاسود فى توبته ، وهو أيضا الذى يقول عنه القديس يوحنا كاسيان أنه كان قساً ورئيساً لبرية شيهيت قبل الانبا بفنوتى .

ويذكر العالم الكبير هـ.ا. هوايت Hugh G. Evelyn White اسم الانبا ايسيذروس فى سياق حديثه عن الانبا بموا فيقول

مقدمة

باسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

كتبنا عن القديسين الذين تذكرهم الكنيسة القبطية فى قداساتها قروناً عديدة .

ويلوح لنا أن قليلين هم الذين يعرفون شيئاً عن الأنبا ايسذوروس القس فترجمنا ما ورد عنه فى بعض المصادر الفرنسية والانجليزية وبالأخص بمجموعة Les Vies des Pères des Déserts d'Orient, Avignon 1761.

وهى أفضل ما كتب عن هذا القديس الذى لمع نجمه فى القرن الرابع وله أقوال متجددة فاعليتها مدى القرون، فنقدمها ذكرى عطرة لصاحبها ـ نفعنا الله ببركاته آمين .

Vies des Saints et des Bienheureux par les R.P. Bénédictins.

صفحة ٢٩٩ ماترجمته :

القديس ايسيذورس قس الاسقيط .

يوجد بعض الخلط فى

موضوع الرهبان القديسين باسم ايسيذروس . ويرى العالم « تيموند » Tillemond فى الجزء الثامن من كتابه : Mémoires pour servir à l'histoire ecclésiastique, d'après l'histoire lausiaque,

فى صفحة ٤٤ أن الذى نتكلم عنه هنا هو ذاته الذى ارشد الأنبا موسى الاسود فى توبته ، وهو أيضا الذى يقول عنه القديس يوحنا كاسيان أنه كان قساً ورئيساً لبرية شيهيت قبل الانبا بفنوتى .

ويذكر العالم الكبير هـ.ا. هوايت Hugh G. Evelyn White اسم الانبا ايسيذروس فى سياق حديثه عن الانبا بموا فيقول

فى الجزء الثانى من كتابه The history of the Monasteries of Nitria and Scethis ما ترجمته :

أن « روفينوس » Rufinus يعتبره مع المقارات القديسين كواحد من معلمى الصحراء . وايرونيموس Jérôme فى خطابه الى « اوستوكيوم » Eustochium يذكره مع القديس مقاريوس فيقول انهما مع المجمع الأعلى الذى نطق بحكم رهيب على أحد الرهبان بسبب بخله .(١)

---

١) هذا المجمع ضم الآباء الكبار مكاريوس وعمواً وايسيذوروس ، وآباء آخرين ، وقصة هذا الراهب كما أوردها كتاب الثلاثة مقارات لدير السريان ص ١١٨ هى كما يلى :

« وردت القصة التالية فى الرسالة الثانية والعشرين للقديس ايرونيموس التى ارسلها الى تلميذته بوستوخيوم : قال سأقص عليك حادثاً وقع منذ سنوات ليست بكثيرة فى نتريا :

حدث أن اخاً عن طريق التدبير والاقتصاد وليس عن طريق البخل ، نسى أن المسيح قد بيع بثلاثين من الفضة ، فترك هذا الأخ وراءه عند موته مائة قطعة من الذهب ربحها من نسج الكتان ، فعقد الرهبان

ويقول المؤلف أيضا عن القديس الانبا بفنوتى انه خلف الانبا ايسيذوروس كقس ورئيس المجموعة الأولى فى الأسقيط حوالى سنة ٣٧٣ م.

كثيرا مايذكر الأنبا إيسيذورس باسم « قس الاسقيط » وهو بالتأكيد واحد من زملاء الأنبا مكاريوس الأولين، ويذكر القديس يوحنا كاسيان أنه كان قساً على ذات المجموعة

مجمعاً ليقرروا ماذا يعمل بخصوصها اذ كان هناك خمسة آلاف منهم يعيشون فى المنطقة المجاورة له فى تلالى منفردة . فقال البعض ان المال يجب أن يوزع على الفقراء ، وقال آخرون يجب أن يعطى للكنيسة ، وقال غيرهم يجب أن يرسل الى أبوى الأخ المتوفى .

ولكن القديسين مكاريوس وعمواً وايسيذوروس وآباء آخرين يتكلم الروح القدس بواسطتهم قرروا أنه يجب أن تدفن القطع الذهبية مع صاحبها قائلين : لتكن فضتك معك للهلاك .

وينبغى الا يفكر احد فى أن ذلك القرار كان قاسياً ، لان خوفا عظيما وقع على كل الذين فى مصر ، حتى انها تعتبر جريمة الآن أن يترك أحد وراءه قطعة ذهب واحد !!!

التى صار الانبـــا بفنـوتى رئيساً لها فيما بعد - وهى أحدى المجموعات الاربع من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى الاسقيط قبل نهاية القرن الرابع .،،

(ويتفق هذا القول مع قول العالم « تيموند Tillemond » ويقول أن الانبا بفنـوتى كان قسّاً بالمعنى العام تلميـــذاً للانبا مقاريوس الكبير، وتربى تحت اشراف الانبا ايسيذوروس القس .

وجاء فى تاريخ دير البرموس كما كتبه ايفلين هوايت أيضاً : هذه رواية التأسيس الفعلى لدير البرموس : « بعد مـــدة من نياحة القديسين مكسيموس ودوماديوس ، كان يسكن البرية عدد كبير من الرهبان من جبل برنوج ومن المساكن المنفردة المتفرقة فى كل مصـــر . وبنوا كنيسة كبيرة وجعـــلوا الانبا ايسيذوروس قساً بها ، وانا أيضا بشوى الحقير كنت شماساً . وبعد ذلك أعطى الانبا مقاريوس الكبير اسماً للكنيسة

قائلا : دعوها فلاية البرموس على اسم الرومين، مكسيموس ودوماديوس .

وكتب أيضاً : يذكر الانبـــا إيسيذوروس باسم « قس الاسقيط » وكأنما كان له منصب فريد ؛ ويذكر أنه فى إحدى المناسبات ذهب الى الأنبا تاوفيلس بطريرك الاسكندرية، ومن الواضح انها كانت الزيارة الرسمية السنوية التى كان يقوم بهـــا رؤساء الأديرة لرئيس الأساقفة . ومع ذلك فان الانبا مقاريوس كان قساً وأباً الاسقيط فى ذلك الحين . أنستنتج من ذلك أنه عندما كان الانبا مقاريوس يعتزل على أنفراد، كان ينيب عنه فى وظيفته الانبا إيسيذوروس قساً ورئيساً ، ثم يعاود وظيفة ثانية فى ظروف غير معلومة لدينا .

لو كنا لانعرف عن الأب ايسيذوروس سوى أنه حصل على شرف النفى الى إحدى الجزر بمصر مع المقـــارين القديسين

والقديس بموا من أجل دفاعه عن الايمان بلاهوت يسوع المسيح، لكان ذلك وحده كافياً للثناء عليه .

لقد كان من أولئك الذين تصفهم بلقب تلاميذ القديس انطونيوس ، الرجال السماويين الذين كانوا يخاطبون الملائكة أكثر مما يخاطبون الناس ، فهو من رؤساء المتوحدين ، أنوار الصحارى . تحمل الاضطهاد من جهة الاريوسيين دفاعاً عن رسالة الكنيسة ، فنفى بالخزى أولئك الذين ارادوا لها شراً.

سكن وادى النطرون سنة ٣٧٣ ، وكان قسيساً هناك . ثم انتقل الى صحراء الاسقيط حيث خدم الكنيسة الرئيسية هناك وخلفه الانبا بفنوتى .

اجتهد منذ السنوات الاولى من دخوله حياة الرهبنة أن يبقى داخل قلايته ، وأن يتعود على حفظ ذهنه متصلا بالله بالصلاة . لم يحدد لنفسه تلاوة عدد معين من المزامير ؛ ولكن يمكن ان يقال انه ما كان يفعل شيئاً آخر غير التلاوة نهاراً وليلا.

وذلك لم يكن يمنعه من العمل بيديه كثيراً ، وهكذا كان يجمع بين الصلاة والعمل ويقدس عمله بصلاته .

ويقول عنه القديس يوحنا كاسيان أنه كان يقول : « لنجتهد فى الصلاة فيهرب العدو ، ولنجتهد فى التأمل فى الله فننتصر .»، وكان القديس بعيداً كل البعد عن الاعتقاد بأنه عال من الخطية. قال له ذات يوم أحد تلاميذه : « إنه ليست عليك خطايا » . فرد عليه : « لو أظهر الله خطاياى للعالم ، ماكان يكفى أربعة أشخاص أو أكثر لكى ينوحوا عليها . »

كان محباً جداً للعمل ، وكان يستمر فيه فى الليل أيضا . وعندما كان الاخوة يطلبون منه أن يأخذ بعض الراحة ، كان يرد عليهم قائلا : « وماذا نستطيع ان نفعل بالمقارنة الى ما فعله ابن الله من أجلنا ؟ الم نحضر إلى هذا المكان لكى نشتغل فيه ببعض الأعمال ونتحمل بعض الاتعاب التى يمكن ان تجعلنا مستحقين لراحة النفس وفرح السماء ؟ »

لم يخفف عن نفسه هذا التدريب طوال حياته ؛ وعندما تقدم فى الأيام ، لم يتوقف عن العمل أثناء الليل أيضاً . وكان الاخوة يرجونه أحياناً أن يهتم بصحته ويأخذ قسطاً من الراحة ، لكنه كان يرد عليهم قائلا : « بعد ما صنعه يسوع المسيح بمجيئه الى العالم ، فحتى لو أحرقوا ايسيذوروس وذروا رماده فى الهواء ، فلا يكفى ذلك ليوفى للرب ما له عليه عرفاناً بالجميل . »

كان الأنبا بيمين يقول ذلك عنه ، إن الشيطان كان يحربه تارة بالمجد الباطل ، وطوراً بالتخاذل . فكان يوسوس اليه أحيانا هكذا : « أنت بالتأكيد رجل عظيم . » وحينئذ كان يقول لنفسه : « هل أنا مثل الأنبا أنطونيوس ؟ ليت الله يسر بأن أكون على الأقل مثل الأنبا بمبو ومثل الآباء المتوحدين الآخرين الذين ارضوا الله بتقواهم . » وكان هذا التفكير المتواضع يبدد التجربة فى الحال ويعيد الهدوء الى نفسه .

ومرات أخرى كان الشيطان يحاول أن يثبط عزمه فيلقى

فى روعه أنه يعمل كثيراً ولن يفيده عمله كثيراً ، سيكون خاسراً فى الحياة الاخرى . فكان يرفض ذلك قائلا : « حتى ولو سقطت فسوف تكون أيضا تحت قدمى » .

أعتق كثيرا منذ البداية ان يزيل مشاعر الغضب والضجر فى أول ظهورها . ولمدة أربعين سنة اختبر فيها احياناً حركات الميل الفطرى الى الخطية ، لكنه بنعمة الله لم يقبل أبداً أى رغبة جسدية ولا أى شعور بالغضب . ولذلك كان متيقظا جداً للهروب من فرص الخطية ، حتى انه ذهب يوماً الى السوق لكى يبيع سلاله التى صنعها ، فما أن شعر بمشاعر الغضب ترتفع فى قلبه ، حتى ترك سلاله فى الميدان وانسحب .

هذا ما رواه بنفسه ويقول عنه القديس يوحنا كاسيان : لقد وهب هذا القديس نعمة فريدة فى حله وصلاته وتأمله . وبسبب عنايته بقمع هذا الهوى منذ صار راهباً ، جعله الله مرهوباً جداً من الارواح الشريرة . فكانت تخشاه جداً لدرجة

أنه حينما كانوا يحضرون اليه اناساً بهم أرواح نجسة لكى يخرجها بصلواته ، كانوا يشفون قبل أن يتخطوا عتبة بابه . وهذا ما رواه كاسيان .

وكان قد أكتسب بتعنيفه نفسه حلماً كبيراً ، حتى لم يستطع أحد أن يقاومه ، وحيثما وجد راهب فى بعض الاديرة أو بطرف بعض الشيوخ ، جباناً ، أو كسولا أو عاصياً أو مشاغباً حتى لدرجة الشتم ، ويريدون أن يطردوه لذلك ، كان القديس ايسيذوروس يأمر باحضاره اليه ، ويقومه من عيوبه بحلمه وصبره .

كان المتوحدون يلجأون اليه فى تجاربهم وشدائدهم المختلفة ، ليس فقط لأنه كاهن ، بل أيضا من أجل خبرته العظيمة فى الامور الروحية ، ومن أجل السلطان الذى أعطاه له الله على الشياطين ، ومن أجل سمو تقواه .

وفى سيرة الانبا موسى نرى الى أى حد كانت نصائحه

نافعة فى التجارب العنيفة التى كان يمر بها ، وكيف نجا منها بصلواته ، حتى كان بلاديوس الذى يروى ذلك يدعوه ايسيذوروس الكبير .

وجاء فى الجزء الاول من مجموعة

Les Pères du Désert, par Jean Brémond

صفحة ٧٨ و ٧٩ ما ترجمته :

اعترضت الأنبا موسى الاسود الذى كان ساكناً فى المكان المدعو « بترا » ، ذات يوم ، هجمات قوية من شيطان الزنا ، فلم يستطع أن يبقى فى قلايته ، بل ذهب الى الآب القديس ايسيذوروس وروى له شدة التجربة . فمزاه الانبا ايسيذوروس وذكر له شهادات الكتب المقدسة ودعاه للعودة الى قلايته .

ولكن الانبا موسى لم يقتنع بذلك حينئذ ، صعد الانبا ايسيذوروس والانبا موسى معا على قمة القلاية ، وقال الانبا ايسيذوروس : « أنظر إلى الغرب » . فرأى جمعاً من الشياطين فى هياج شديد وكأنهم يستعدون للمعركة . ثم قال الانبا ايسيذوروس : « انظر الى الشرق » . فرأى جمعاً غفيراً من الملائكة القديسين ، جنود القوات السمائية ، يتألقون فى

بحد أبهى من نور الشمس . فقال الأنبا ايسيذوروس : « الذين رأيتهم عند الغرب هم الذين يأجون القديسين ، والذين رأيتهم عند الشرق هم الذين يرسلهم الله لمعونة القديسين . فاعرف اذن أن الذين فى جانبنا يتفوقون فى العدد والقوة، كما يقول اليشع النبي .

فتعزى الانبا موسى فى الرب بهذه الكلمات وعاد الى قلايته شاكراً ومجداً صلاح ربنا يسوع المسيح .

ومع ذلك كان يعرف كيف يتكلم بقوة عندما يجد مايدعو لذلك حتى يزكى حرارة المتوحدين . قال لهم فى أحد الأيام:

« يا اخوتى ، ألم تحضر الى هذا المكان لكى تتحمل الاعمال والاتعاب ؟ ومع ذلك فاننا لا نتألم بشيء . فاذا كان الأمر يستمر هكذا، فسآخذ فرو الخروف الذى لى ، وابحث عن مكان آخر يكون فيه شيء اتعمله من أجل منفعة نفسى . »

واليك أيضا بعض النصائح التى كان يعطيها لهم :

« حرص القديسين هو فى معرفة ارادة الله . لان الانسان

يجبول على صورة الله ومثاله ، ويسمو فوق كل شيء بخضوعه وطاعته للارادة الالهية . وعلى النقيض من ذلك ، فان اشد التجارب خطراً هى أن تتبع أفكار القلب مفضلين اياها على وصية الله . فالشبع الشرير الذى نجده يتحول حالا الى مرارة، وتعقبه الندامة لاننا تجاهلنا الخير الحقيقى ، وابتعدنا عن طريق القديسين الذى كان يجب علينا أن نسير فيه . فلنعمل اذن الآن حيث انه ما زال وقت ، ولا نضن بانفسنا ، فاننا بالألم نخلص ،حسب كلمة ربنا يسوع المسيح « بصبركم تقتنون أنفسكم » .

كان يوصى أيضا كثيراً بالتقشف والتجرد من خيرات هذا العالم قال لاحد المتوحدين :

« اذا كنت ترغب فى أن تملك ملكوت السموات ، فاحتقر غنى العالم فتكون لك المكافأة من الله ».

وفى مناسبة اخرى كان يقول : « لايمكن الجمع بين الاخلاص لله ومحبة الاموال والملذات الارضية »

وقال أيضاً : « اذا كنتم تريدون الوصول إلى الخلاص ، فـــارسوا الاعمال التى توصلكم اليه . وأضاف قائلا : « حينما تصومون ، احذروا من أن تجعلوا من صيامكم موضع افتخار ؛ واذا كنتم تلاحظون أن هذا المجد الباطل يتغلب فى قلبـــكم على طهارة النيـــة الواجبة عليكم فى صومكم، فلا تصوموا وافطروا امساككم . فان أكل اللحم حينما لا يكون ممنوعاً من قبل الوصية ، خير من الكبرياء والسجع الباطل » .

وجاء أخ يطلب نصيحة بخصوص الأفكار ضد الطهارة التى كانت تحزنه مرات عديده ؛ فرد عليه قائلا : « لايجب أن نتعجب من أن هذه الافـــكار تأتى أحياناً وتشغلنا وتجعل خيالنا مضطرباً . المهم مع تسببها بعض التعب فى طريق الفضيلة ، الا تقوى علينا بانتزاعها موافقتنا . وما يجب أن يفعله الرجل الحكيم فى هذه الحالة ، هو أن يحاول أن يبعد عنه هذه الافكار فيلجأ فى الحال الى الصلاة »

ومرة أخرى كان يقول فى نفس الموضوع :

أن لم تكن لنا أفكار ، فنحن نشبه البهائم . لـكن بما أن عدونا يفعل من ناحيـة مايتفق من خبثه ، ويحثنا على الشر بايحاءاته أن ، فيجب علينا من ناحيتنا أن نقوم بواجبنا فنلجأ الى الصلاة وسوف ينسحب العدو . انتما ننتصر بتفكيرنا فى الله . والمثابرة فى الخير تصنع النصر. فلنجاهد حتى نكلل » .

وكان يوصى المتوحدين الشبان بهذه الوصية الممتازة :

« احبوا مرشديكم كابائكم ، وخافوهم كمعليكم ؛ ولا تتدهور المحبة فتصير ألفة فتطفى المخافة ؛ ولا تطفى المخافة أيضا على مشاعر المحبة التى يجب أن تكون فى قلوبكم نحوهم » .

كان يعتزل على قدر استطاعته ، ويقول انه يقلد فى ذلك الحيوانات المتوحشة التى تجد أمنها فى جحورها ؛ ولم

يكن يفعل ذلك من أجل منفعته الشخصية فحسب ، بل أيضا لكى يوحى بها الى المتوحدين الآخرين بقدوته .

جاءه يوماً شخص يدعوه الى العشاء ، فاعتذر قائلا : « أراد آدم أن يأكل من الثمر الذى كان محرماً عليه، فطرد من الفردوس » .

فقال له الأخ : « اخشى جدا أن تخرج من فلايتك » .

فرد عليه الشيخ القديس قائلا : « نعم يا بنى ، بالتأكيد أخشى ذلك ، لأنه مكتوب أن الشيطان كأسد زائر يريد أن يبتلعنا » .

ويمكن أن نتصور كم كان جهاده من جراء ذلك. عندما رسم أبنا ثاوفيلس بطريركا للأسكندرية ، ذهب ابنا اسيذوروس لزيارته . وعند عودته سأله المتوحدون عن أخبار المدينة ، لكنه رد عليهم انه رأى البطريرك فقط .

فقالوا له : « كيف يا أبانا ، هل هدمت هذه المدينة العظيمة » .

فرد عليهم قائلا : « ليس ذلك ، لكنى فكرت انه يجب على أن اقيد عينى ، وهكذا لم أر احداً آخر غير رئيس الأساقفة » .

فتعجبوا من نسكه ، وتعلموا من ذلك ألا يتركوا نفوسهم للفضول بدون ترتيب ، وأن يحفظوا عيونهم فى حدود الاعتدال الدينى .

رسم الأنبا تاوفيلس (١) بطريركا سنة ٣٨٥ م، والمعتقد أن انبا اسيذوروس تنيح بعد ذلك بسنوات قليلة ، اذ أن بلاديوس الذى يتكلم عنه بخصوص الانبا موسى ، لايقول انه رآه فى الاسقيط الذى جاء اليه سنة ٣٩١ . هذا هو افتراض « تيموند » Tillemond ويعتقد أيضا انه هو الذى تذكره كل سير القديسين مع

القديس مكاريوس الكبير .

ويحدد القديس يوحنا كاسيان زمن زيارة الأنبا ايسيذوروس بحوالى سنة ٣٩٧ م .